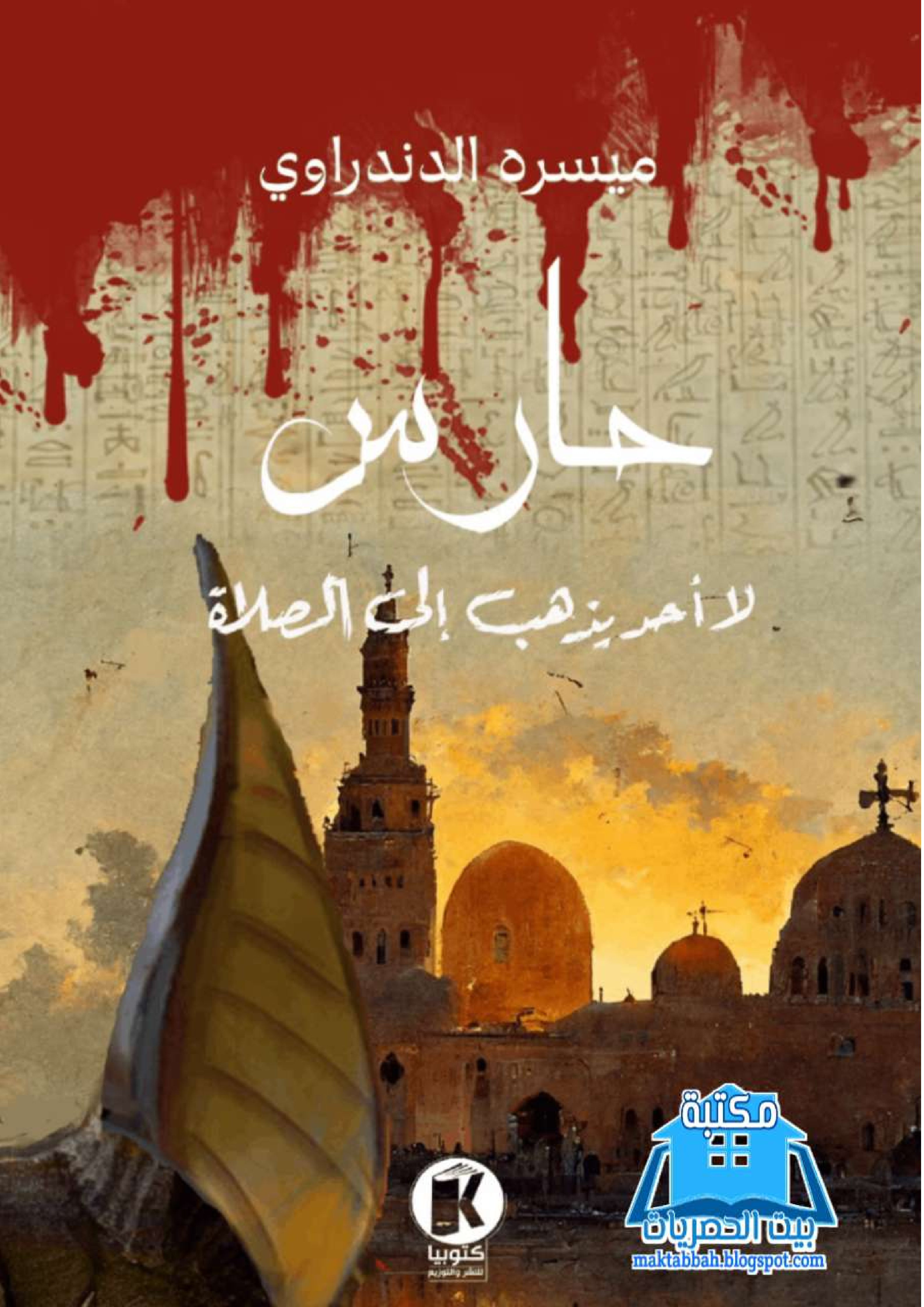

ميسره الدنداوي
حارس
لا أحد يذهب إلى الصلاة
كتوبيا
مكتبة
بيت المصريات
maktabbah.blogspot.com

مشهد افتتاحي

النيابة العامة - القاهرة الجديدة

مساء الحادي والثلاثين من مايو عام ألفين وثلاثين

- اكتب عندك يا ابني.

يضع إبراهيم أبو النور يديه في جيبي بنطاله القماشي المفصل بعناية فائقة ليستوعب الانحناءات المفاجئة في فخذيه الممتلئتين، وعيناه ترقصان شغفا وإثارة من خلف زجاج عويناته الطبية الفاخرة المطلية إطارها وأذرعها بفضة خالصة توحي بفخامة ومستوى مالي مرتفع.

- هذا وباسم القانون، نحن إبراهيم أبو النور رئيس نيابة القاهرة الجديدة وممثل سلطة القانون، قررنا حبس المتهم محمد حارس جاد المولى المصري أربعة أيام على ذمة التحقيق، ويراعى له التجديد في المواعيد المقررة ..ادي الباشا يوقع.

قالها وعيناه تنظران بشغف زاد عليه قليل من التشفي إلى وجه المتهم، بينما تنحنح رجل عجوز يجلس على المقعد المقابل للمتهم وهو يعدل من وضع عويناته المتدلية فوق قصبة أنفه العريض:

- إبراهيم بك ..نوصلها لحبس ليه طيب.. ليه حضرتك ما تفرجش عن محمد باشا بكفالة مالية أيا كانت قيمتها.

- سيادة المستشار ..حضرتك أستاذي العزيز وأنا لسه بتعلم القانون منك.

ثم التفت بجسده الممتلئ أسفله المترهل جذعه وألقى ببصره

على صورة بالحجم المتوسط للسيد رئيس الجمهورية معلقة فوق المقعد الذي يجلس عليه مباشرة، ويبدو فيها الرئيس بالغ الصرامة والحزم كعادته في التصوير والخطابات الجماهيرية مؤخرًا.

- المادة ٥٣ من قانون العقوبات الجديد المقر سنة ألفين خمسة وعشرين ما بتديش ممثل القانون الحق في الإفراج بكفالة مالية في حالة وجود أكثر من دليل دامغ على ارتكاب الجرم المشهود

قالها بالكامل ومؤخرته المترهلة تهتز مع فخذيه من فرط الإثارة، بينما تواجه كرشه المتدلية وجه العجوز.

المستشار عبد المعطي مصطفى، المحامي بالنقض والاستئناف، أستاذ القانون المدني بجامعة عين شمس وجامعة الثلاثين من يونيو، والمحامي الخاص المقرب لخمسة وزراء حاليين وأربعة سابقين، بل يقال -والله أعلم- أنه المحامي الشخصي والمقرب لنائب رئيس الوزراء وعائلته شخصيًا، وأنه أمين سره وكاتم أسراره، كما أنه -وهذا أمر أكيد – واحد من ستة قانونيين كانوا أعضاء في لجنة تعديل القوانين بعد إقرار الدستور الجديد بداية العام الماضي.

- إبراهيم بك ..ما يصحش برضه وأنت سيد العارفين وممثل القانون.. إننا نرتقي بشكوك لا ترتقي لدرجة القرائن إلى درجة الدليل.. وزي ما أنت عارف أكيد.. المادة ٥١ من قانون العقوبات عرفت الدليل بانه ...

- كل قرينة تثبت صحتها سواء بالتحليل المادي أو العلمي أو بالإجماع أو بالاستدلال الممنهج أو بالثبوت.. عارف الكلام ده كله حضرتك وإلا ما كنتش أبقى هنا..بس الظاهر إن حضرتك

فاتك تفصيلة صغيرة حبتين.

ثم مد يده إلى ملف ازرق وضعه كاتب النيابة بيده هذا الصباح، وراح يعد أسبابه في أداء مسرحي يليق بمسرحيات جلال الشرقاوي في مطلع التسعينات:

- حضرتك ما اطلعتش على تقرير الطبيب الشرعي وتقرير الأدلة الجنائية..أنا هوفر عليك وقتك الثمين وهقول لحضرتك فحواه ايه..أولًا.. البصمات المرفوعة من على السكين التي عثر عليها في شقة المجني عليه هي بصمات مختلطة لثلاثة أشخاص.. المجني عليه نفسه..وشخص تاني لم تتطابق بصماته مع أي من المشتبه فيهم.. وبصمات العقيد محمد حارس المصري..

ثم راحت يداه تتراقص أمام جسده ومعهما تتراقص طبقات الشحوم حول جانبي بطنه:

- آثار الأتربة المرفوعة من حول جثة المجني عليه متطابقة بنسبة ١٠٠٪ مع الأتربة التي تم تجميعها من دواسة القدم الموضوعة أمام شقة العقيد محمد حارس المصري.. بنفس نسبة الاختلاط الخاصة بأنواع الأتربة المختلفة.. واختبار السيليكون أكد كده..

ثم راح يمشي مشية مسرحية متبخترة في أرجاء مكتبه الفخم:

- وفي الآخر بقى.. المتهم محمد حارس المصري تم القبض عليه متلبسًا بحيازة حبل طوله ١٥٨ سم من نفس نوعية الحبل النايلون المستخدم في الجرائم الأربعة اللي تم خنق المجني عليهم بيه.. كده حضرتك عديت معايا كام قرينة.. ثلاثة يا

فندم.. أزيدك من الشعر بيت..مفيش حجة غياب واحدة موثوقة عند المتهم في الوقت اللي حدده الطب الشرعي والأدلة الجنائية لارتكاب الجرائم الثلاثة الأولى..الجرائم اللي هو ما كانش بيحقق فيهم.. طب ازاي بصماته على السكين والأتربة جنب الجثة.. كده بقوا أربع قرائن يا سيادة المستشار.

ثم أنهى إبراهيم أبو النور مرافعته الحماسية وهو يلهث من فرط الانفعال، فألقى بجسده البدين فوق المقعد الجلدي، وصمت للحظة وكأنه ينتظر تصفيق الجماهير المدوي، ثم مد يده إلى كوب ماء كبير جرعه كله دفعة واحدة وعيناه تنظران في جشع إلى عبد المعطي ومحمد حارس من خلف زجاج الكوب الشفاف، فترى رأسًا متضخمًا للمستشار السابق ورأسًا مشوهًا لمقدم المباحث المتهم بجريمة قتل نكراء، قتل أربعة من خيرة أطباء مصر!!

ينظر عبد المعطي إلى محمد حارس، فيجد تلك النظرة الخاوية لم تبرح عينيه، نظرة رسمت بيد فنان محترف على وجه محمد حارس تخفي خلفها ذلك البركان التي تتناثر حممه من هزة ساقيه العصبية وانضمام أصابع يده اليمنى إلى بعضها البعض، بينما حدقتاه العسليتان موجهتان نحو صورة السيد الرئيس كأنما انجذب إليه وصار مريدًا لكراماته.

- طبعًا أنا لو قعدت من هنا للصبح أحاول أفند في الأدلة دي حضرتك ولا هتسمعني.. واضح إنك واخد قرارك يا إبراهيم بيه والموضوع منتهي.

- مع الأسف يا سيادة المستشار..ومع شديد احترام وتقديري لشخصك وخبرتك.. أنا هنا بطبق القانون بحذافيره.. روح

القانون والمرافعات والتفنيد مكانه في المحكمة قدام القضاة، لكن أنا هنا ممثل إنفاذ القانون، حضرتك أستاذنا وعارف.

ثم رفع ذراعيه البدينتين بمحاذاة كتفيه معلنًا أن الأمر قد نُفذ وأن يديه الممتلئتين لا حيلة لهما في ذلك، بينما بريق عينيه المنتصرتين تضربان وجه المستشار المخضرم بصواعق الانتصار، ثم ضغط زرًا بجوار مكتبه فدق الباب دقتين مكتومتين ودخل جندي هزيل ذو شارب متضخم فوق فمه بطريقة كرتونية تثير الضحك.

- خد الباشا على عربية الترحيل المخصوصة يا ابني .. وتقولهم إن إبراهيم بيه موصي إنه يتاخد على الحجز المخصوص .. ويعامل معاملة ضابط سابق.. فاهم.

أومأ الجندي الهزيل برأسه المثلثة فاهتز شاربه مع هزة رأسه، بينما كاتب النيابة العجوز يكتم ضحكاته التي تفضحها عيناه الرماديتان، يكتمها لأنه يعرف من هو إبراهيم أبو النور، يكتمها حتى لا يطيح إبراهيم أبو النور به خارج هذه الغرفة إلى الأرشيف أو ربما إلى ما دون ذلك.

بينما محمد حارس ينهض مع الجندي الذي طوق ذراعه بيده الشبيهة بحبل الخنق الملقى على طاولة الأحراز، الطاولة التي أصر إبراهيم أبو النور أن تكون حاضرة في التحقيق، الطاولة التي يغفو عليها حبل سميك طوله ١٥٨ سنتيمتر من نوع قماشي خشن ندر وجوده هذه الأيام.

رحل محمد حارس المصري، مسلوب الإرادة خاوي النظرات، وعيناه ما تزالان معلقتين بوجه رئيس الجمهورية في صورته الفوتوغرافية الكبيرة، بينما نهض عبد المعطي وخيبة الأمل تبدأ

ركوب الجمل حتى تلحق به، وأغلق أزرار سترته الفاخرة وهو يرمي إبراهيم أبا النور بنظرة أخيرة، ثم خرج من نفس الباب الذي تركه الجندي مواربًا. تتبعه ضحكات خافتة شامتة تخرج مكتومة من شفتي ممثل سلطة القانون.

الاسم الرسمي الجديد، الذي ألحق بكل من يملك سلطة تمثيل القانون في مصر بعد التعديلات الأخيرة التي أصر عليها النائب الأول لرئيس الوزراء ورئيس المحكمة الدستورية الأسبق.

إبراهيم أبو النور الذي اتجه ناحية صورة رئيس الجمهورية، ورفع يده اليمنى ليؤدي تحية تليق بعرض عسكري.

- ورانا حاجة تاني النهاردة؟

- لا سعادتك.

قالها كاتب النيابة وأصابع يده اليسرى تضغط على باطن طاولة المكتب.

- يبقى اتوكل على الله روح أنت.. وأهو تلحق الماتش ع القهوة برضه .. ما أنا عارفك.. تلاقيك بعت التليفزيون وجبت بتمنه سجاير.

- سجاير .. يا بيه هو احنا بقينا لاقيين سجاير .. ده وزير الصحة قفلها علينا أكتر ما هي....

طقطق إبراهيم أبو النور بشفتيه مقاطعًا، ورفع إصبعه الممتلئ القصير نحو وجه الكاتب:

- لا .. عيب كده .. كده أزعل منك .. وأنت عارف زعلي وحش.

تخيل الكاتب نفسه وهو ضحية لزعل السيد إبراهيم أبو النور

وكيل النائب العام، وابن القاضي السابق، وكيف سيلقى مصيره كاتبًا في إحدى محاكم الأقاليم القصية، أو ربما جالسًا أسفل شمسية مهترئة ممزقة الأطراف تتدلى منها حقيبة قماشية تحتوي أقلامًا وأوراق فلوسكاب رديئة، وربما ..

- سلام.. أشوفك بكرة .. وما تنساش تدعي للزمالك حاكم أنت بركة.

قطع أبو النور تأملاته السوداوية، ثم رفع سترته الرمادية المعلقة على المشجب الخشبي الأنيق، وأشار إليه مغادرًا الغرفة.

وبينما مشى إبراهيم أبو النور يضرب الأرض اللامعة بحذائه محدثًا ضجة مكتومة في سماء الغرفة الخاوية، كانت أصابع الكاتب ما زالت تضغط باطن المكتب، على الرغم من أنه نطق الآن بكلمات إطلاق سراحه التي ينتظرها منذ السابعة صباحًا.

تضغط على المكتب لأنها تعرف أن الحقيقة ليست ما قاله إبراهيم أبو النور، وليست ما يظنه عبد المعطي مصطفى.

الحقيقة في رأسه هو وسوف يكتبها، سوف يكتبها لأنها شهادته على ما سمعه وما عرفه، سوف يذهب الكاتب العجوز الآن إلى غرفته القابعة في شقة تشبه البنسيون/الفندق/السكن المشترك المقسم إلى غرف بحوائط جبصية، أو ما يمكنك أن تسميه، تحايل على أزمة السكن وغلاء المعيشة، واستغلال ممن يملك شقة مكونة من أربع غرف، فقسمها بحوائط جبسية إلى سبع غرف أشبه بقبور عالية السقف، ومنح كلًا منهم طاولة ومقعدًا بلاستيكيًا يؤذي الظهر وتتورم منه الأفخاذ، وسريرًا معدنيًا بجواره دولاب شبيه بدولايب معسكرات الجيش، حتى أن علامة مصنع الألومنيوم الحربي تزين الجانب الأيسر منه، والذي

يراه كل صباح عند استيقاظه.

ربما ضاجع امرأته العجوز العجفاء العقيمة، أو وضع قطعة من الأفيون -الذي يهربه من بين الأحراز الرسمية- أسفل لسانه الجاف لتمنحه بعض الغياب المستحب، ربما امتص سيجارة نادرة الوجود في زمننا هذا بعد رفع الضرائب على التبغ، ليصبح سعرها منافسًا لسعر الأفيون شخصيًا!!

ربما وربما وربما... لكنه سيفتح عينيه على اتساعهما.. ويمسك بقلم جاف محلي الصنع، ورزمة أوراق صفراء خفيفة، وسيكتب كل شيء، سوف يجلس مكان إبراهيم أبو النور الآن.. وسيحكي لكم .. سيحكي لكم عن الحقيقة..

الحقيقة التي عرفها ..

وكتمها..

*****

الحلقة الأولى

لا أحد يذهب إلى الصلاة..!!

المشهد الأول

ليل–خارجي

شارع التسعين-القاهرة الجديدة

مساء الحادي والثلاثين من ديسمبر عام ألفين وتسعة وعشرين.

ليست افتتاحية جديدة للعام في الحقيقة .. ولا حتى ختامًا

جيدًا لعام حافل مثل هذا!

عام جديد.. عام كان لا بد أن يفتتح بجلسة دافئة مصحوبة بقدح من حمص الشام الساخن المزين بقليل من الليمون والشطة، أمام أحد أفلام نيتفليكس الجديدة، بصحبة صديق حميم أو صديقة حميمة إذا أردنا أن كون صادقين.

هذا ما قاله النقيب كريم لبيب لنفسه وهو يقف متدثرًا بمعطف ثقيل وكوفية صوفية تلتف كأفعى البوانا حول رقبته السميكة، وهو ينفث دخان سيجارته فيتجمد فوق شفتيه ووجهه الوسيم الحليق.

يقف هناك في ليلة رأس السنة الجديدة، وأضواء طوافة الإسعاف تلتمع فوق عينيه الواسعتين اللتين ضاقتا بفعل البرد، الحقيقة أنه لا يجد علاقة بين البرد القارص وتضييق عينيه، لكنه يشعر برغبة في تضيقهما وحك ذقنه بقوة، إلا أن أصابعه المدفونة في القفاز الجلدي بحثًا عن الدفء لم تسمحا له بتحقيق هذه الرغبة المرضية.

ينفث الدخان من جديد بينما يتقدم منه رجل بدين في أواخر أربعيناته، يمشي كبطاريق فيلم **Happy Feet**، ربما كالبطريق الزعيم العملاق، ويرتدي عويناتِ طبية صغيرة منحته مظهرًا مضحكًا. لو كانت حياته فيلمًا لاختار ممثلًا قديرًا كان يشبه ذلك البطريق الآدمي، لو كان في فيلم لاختار ماجد الكدواني للعب دور مصطفى الحلواني، إنه يشبهه إلى حد الجنون.

يتقدم الشاب منه فيلقي بسيجارته على الأرض ويسحقها بطرف الحذاء الجلدي ذي الرقبة:

- ايه الاخبار يا حلواني.

- الموضوع بسيط الصراحة ومش عارف هم صحوني من أحلى نومة ليه وجابوني على ملى وشي هنا، ده أي حد في البحث كان عرف يظبط الموضوع ويخلص.

ابتسم ابتسامة مخفية من تحت شاربه الكث وهو يراقب علامات الإحباط على وجه مصطفى الحلواني، خبير الأدلة الجنائية المحنك والذي قضى نصف مدة خدمته في تدريبات مكثفة في الولايات المتحدة وبريطانيا وعمل سنتين مع الإنتربول و....

- كانوا سنة ونص بس يا كريم باشا .. الموضوع ما طولش يعني.

- أنت بتقرا أفكاري يا جدع أنت؟

- ولا بقرا أفكارك ولا حاجة .. تلاقيك دلوقتي عمال تقول مصطفى الحلواني اللي شبه الخرتيت اليتيم بتاع سنتين الإنتربول هيتنطط علينا ويعمل فيها هيركول بوارو ويقولك القضية دي حلها كذا كذا، الموضوع منطقي يعني.

- طب ارغي يا منطقي خلينا نلم الليلة دي ونروح بدل ما احنا هنتجمد هنا.

وضم ياقة معطفه فوق الكوفية الثقيلة بينما أمسك مصطفى بجهاز كمبيوتر لوحي راح يقلب فوقه الصور.

- الجثة تم انتهاكها بشكل فيه مبالغة الحقيقة بعد ما طعنه طعنة بسيطة كده تحت ودنه بعدها قام فتح صدره وطلع قلبه

بمنتهى العنف. وحط مكان قلبه ريشة

- ريشة ازاي ريشة اللي هي بتاعة الطيور؟

- أيوة يا سيدي بتاعة الطيور .. ممكن تكون من وزة أو من بطة مش عارف.. المهم القاتل بعدها لف حبل خيش حوالين رقبته .. وكتب كلمتين بحبر أحمر تقيل على فرخ ورق كانسون من بتاع الأنشطة المدرسية وفرشها على السجادة تحتيه .. الموضوع بسيط زي ما أنت شايف.

ابتسم كريم وهو يشعل سيجارة جديدة، مصطفى الحلواني يعرف أنه مجنون أفلام ومسلسلات وأنه توقف منذ فترة عن الشعور بالتقزز، لكن الأمر لا يبدو بسيطًا أبدًا.

- لا الموضوع بسيط خالص.. أنت عارف إني تخيلته بداية كده لمشهد في فيلم ولا رواية بوليسية.

- وطبعًا تخيلتني ماجد الكدواني بمنظري ده وأنت محمد فراج .. لا مش محمد فراج .. ده كبير عليك شويتين.. أنت آخرك محمد أنور وأبقى كرمتك كمان.

ابتسم كريم من جديد، بينما مصطفى يشير له بأصبعيه المضمومين طالبًا سيجارة منحها له، ليضعها خلف أذنه ويقترب من كريم ليمنحه رؤية أقرب للجثة فوق الجهاز اللوحي.

- مستواك في تصوير الجثث اتقدم.

- كاميرات هوواوي الجديدة عاملة شغل فيالتابليتس .. دي ٨٠٠ ميجابيكسل وفيها نايت فيجن كمان.

- الوضع شكله مش مريح بالنسبة لي .. القتل بالطريقة دي

بيحصل في أفلام الرعب المعوي بس ومش بتاع هنا خالص.. ثم علامات الرعب اللي على وش الجثة دي غريبة جدًا.. وكأنه عارف إن حد هيدبحه.. وريني الكلام اللي مكتوب على الورقة ده.

ثم مد إصبعيه محاولًا تقريب الصورة ليقرأ ما كتب بالحبر الأحمر على ورقة بجوار جسد الضحية.

- ايه ده .. والملائكة الذين لم يحفظوا رياسهم ..لا رياستهم .. بل تركوا مسـ .. ايه ده؟

ثم صمت ونظر إلى مصطفى الذي اتسعت ابتسامته بينما ذلك الصوت الحريمي المكتوم يرتفع خلفهما مشفوعًا بسعلة بسيطة توحي بأنفلونزا قادمة في الطريق.

- «والملائكة الذين لم يحفظوا رياستهم، بل تركوامسكنهم، حفظهم إلى دينونة اليوم العظيم بقيود ابدية تحت الظلام» .. يهوذا ١:٦.

التفتا سويا، فارتسمت ابتسامة حانية على وجه مصطفى الحلواني، مثل أم رأت طفلتها الغائبة منذ زمن، بينما ارتفع حاجب كريم الأيسر وضاقت عيناه الخضراوان من جديد.

اقتربت الفتاة معدلة من عويناتها الواسعة الشبيهة بمنظار الغواصين، وهي تضم ثيابها الكثيفة فوق جسدها النحيل، جسدها الذي لم تخفِ نحوله قطع الثياب المتعددة الكثيفة.

- مساء الخير أنا دكتورة إيرين شكر الله مصلحة الطب الجنائي.

المشهد الثاني

نهار-داخلي

مقر رئاسة الوزراء-العاصمة الجديدة

نهار الثالث عشر من فبراير عام ألفين وثلاثين

كل شيء كان في غاية البساطة والفخامة في ذات الوقت.

المائدة المستديرة العامرة بإفطار راق بسيط، وضع فيأطباق من الخزف الأصيل الذي حملته طائرة خاصة من الصين قبل أسبوعين وحطت به في صالة كبار الشخصيات بمطار العاصمة الجديدة، ثم جلبته سيارة سوداء معتمة النوافذ إلى البوابات الخلفية لمقر رئاسة الوزراء ثم سلمته يد ترتدي قفازات بلون أبيض ناصع إلى قفازات سوداء جلدية نظفته وهيأته لهذه المأدبة البسيطة الراقية.

اليوم، يحضر إلى مصر ضيف مهم كان من أحد الذين قضوا فيها أعوام عدة، يجد لغتها العربية بلهجة مصرية خالصة لا تميزها من أبناء البلد نفسها، بل إنه كان أحيانًا ما يمنح دروسًا مجانية في اللهجة المصرية لبعض المصريين المولودين خارج مصر والعاملين في السفارة التي كان يترأس طاقهما.

اليوم يصل رئيس وزراء المملكة المتحدة، الذي كان سفيرًا يومًا ما لديها في مصر، بل وقد طلب سيادته شخصيًا أن يتشرف بلقاء السيد رئيس الوزراء في صبيحة يوم وصوله وأن يتناول معه إفطارًا مصريًا بسيطًا.

إلا أن السيد رئيس الوزراء وبسبب معاناته من آلام في القولون

مؤخرًا، بعد أن المت به متاعب الحكومة وضاقت عليه مطالب الشعب العريض -الذي تجاوز المائة وخمسين مليون مواطن بداية هذا العام- فقد طلب من السيد رئيس الوزراء البريطاني أن تكون المائدة صحية بسيطة خالية من البقوليات ومشتقاتها، على وعد بأن يرافق وفد أمني رفيع المستوى ضيف مصر الغالي إلى أحد أفخر مطاعم الفول والفلافل في ضواحي جوهرة مصر الجديدة.

تحيط بالمائدة المستديرة التي يحتل الفطير المشلتت البلدي صدرها خمسة مقاعد جلدية، لمعت حتى أصبحت جديدة كيوم اشترتها الحكومة من أحد أمهر صناع المقاعد الجلدية في زيمبابوي، وأعيد طلاء خشبها المصنوع من قلوب شجر البلوط النادر الوجود في عصرنا، ووقف سكرتير مجلس الوزراء في مدخل الشرفة المظللة التي تطل على البحيرة الرئيسية في أطراف العاصمة الجديدة منتصب القامة الفارعة عاقدًا حاجبيه من خلف عويناتٍ شمسية أنيقة، يراقب من خلفها بحزم وشدة آخر الترتيبات قبل أن يصل السيد رئيس الوزراء وضيفه.

تقترب منه فتاة قصيرة القامة ترتدي ملابس قماشية رسمية وتزيح خصلة شعرها الناعمة المصففة بناية على يد كوافير القصر صباح اليوم

- كله تحت السيطرة معاليك.

- الفطير ده هيبرد كده وأنتِ عارفة إن معاليه...

- ما تقلقش يا فندم.. الفطير محطوط على صينية ذاتية التسخين هتخليه مولع وكأنه طالع من الفرن.

- والجبنة القديمة اللي الضيف بيحبها.

نظرت نحوه مشدوهة مندهشة فابتسم بطرف فمه ابتسامة ما لبثت أن تلاشت وهو يشير بطرف أصبع يده اليسرى ناحية أحد عمال الصيانة، إشارة جعلت العمل يحرك أباجورة فضية تقف منتصبة في فراغ بين مقعدين، ثم يجثو على ركبتيه ناظرًا إلى قاعدة الأباجورة لدقيقة كاملة، قبل أن ينهض منتصبًا مشيرًا بإبهامه إلى السيد السكرتير.

- تمام ابعت هات حد ينضف السجادة تاني .. أنتِ متنحة وما بترديش علي ليه؟

- حضرتك عرفت منين إن الضيف بيحب الجبنة القديمة.. التقرير بيقول إنه عنده ارتفاع في ضغط الدم ومقاطع الحاجات الحادقة من...

- في تويتة ليه كتبها في سنة ألفين وتمنتاشر أيام ما كان سفير في القاهرة القديمة قال إنه أول مرة يجرب الجبنة القديمة وإنها عجبته جدًا وبقت من أصنافه المفضلة في مصر.. ولذلك حضرتك هتبعتي حد فوزا بالطيارة على السويس يجيب بطرمان من المصنع بتاعنا ويجي.

- طب ما أبعته القاهرة الجديدة أسرع.

- معالي رئيس الوزراء هيوصل هو وضيفه لقاعة الاستقبال الرئيسية الساعة ٨:٣٥ دقيقة والمراسم والمؤتمر الصحفي هياخدوا ٢٥ دقيقة.. والساعة ٩ بالدقيقة معاليه هياخد الضيف ومعاه وزير الخارجية ويطلع على قاعة الضيافة وبعدها بخمس دقائق بالضبط هيكونوا في التراس بيفطروا .. الساعة دلوقتي

٧:٥٥ يعني قدامك أقل من ساعة..رومن القاهرة الجديدة مش هتلحقي.

- بس يا فندم...

أشار لعامل النظافة الذي عدل من وضع الأباجورة منذ قليل إشارة بأصبعه، فصمتت هي وراح العامل يجرب الإضاءة ويقيس شدتها بجهاز مستطيل مصنوع من الزجاج من الاتجاهات الخمسة التي تلقي ضوءها على المقعدين.

- والساعة دلوقتي ٨ .. يعني قدامك ٤٠ دقيقة تكوني موصلة برطمان الجبنة القديمة عند رصيف الشحن تحت.. وتبلغي الطباخ والسفرجية إن الطبق يكون على السفرة في التراس قبل الساعة ٨:٥٥ بالثانية.. لو الساعة جت ٨:٥٦ وحضراتكم ما نفذتوش الكلام ده.. اعتبري نفسك أنتِ والميديا تيم بتاعك والطباخين والسفرجية متحولين للتحقيق..ودلوقتي اتفضلي.. نفذي.

انصرفت مسرعة من أمامه بينما صدر صوت خافتداخل سماعة صغيرة بحجم حبة فول مثبتة داخل أذنه، صوت لا تسمعه إلا أذنه.

- الو مراسم!

أخرج من جيبه جهازًا في حجم هاتف محمول صغير، وراح يضرب بأصابعه الشاشة مسرعًا، وما هي إلا دقيقة صدر بعدها أزيز من الجهاز مصدرًا تلك الموجات التي تحولها السماعة الصغيرة إلى أصوات مفهومة داخل أذنه

- سيادة المستشار وسيادة الفريق طالبين السيد وزير

الداخلية على وجه السرعة.

راحت أصابعه تشرح الموقف المعقد، وأن طلبهم لا يمكن تنفيذه في ظرف ٣٠ دقيقة ستغلق بعدها الأبواب الرئيسية، وستقطع كل سبل الاتصال بالمقر ولن يسمح إلا لطائرة التوريدات آن تحط أمام رصيف الشحن بناء على تعليماته هو.

إلا أن الأزيز صدر من جديد ومعه الصوت يدوي غاضبًا:

- وبعدين معاك يا عزيز .. هو احنا مش هنخلص من تحكماتك دي؟

رفع الجهاز إلى وجهه، وضغط زرًا لتفتح كاميرا بث مباشر على الشاشة الصغيرة يحتلها وجه يؤرق نظامه المحكم ويعكر صفو تجهيزاته.

أصابعه تضرب الشاشة ضربًا

- هيجي منين الخير يا عزيز.. الخط ده متأمن؟

يشير برأسه إشارة موافقة خاطفة.

- كويس أوي .. ازاي يا بني آدم أنت لما تجيلكتعليمات مني أنا والفريق شكري تتجاهلها وترفض تنفيذها، هو ده مقر رئاسة الوزرا ولا فيلا سعادتك؟

ابتلع الإهانة خلف عويناته الشمسية، وابتلع وراءها ابتسامة المستشار حسين فوزي، وسخريته التي تثير الاشمئزاز لا الضحك، وضربت أصابعه الشاشة من جديد بهدوء.

- الظاهر إنك محتاج حد يفهمك الوضع صح من تاني يا عزيز.. طالما الريس مش في القصر ورئيس الوزراء بيستقبل ضيف

مهم زي ده، يبقى حضرتك بتاخد التعليمات مني أو من الفريق شكري النائب التاني.. لو كان الموضوع ده مش واضح ليك لسه يبقى تقلع البدلة والنضارة وتسلم جهاز الاستقبال وتروح تقعد في نادي الجلاء تلعب طاولة ..

حاول الرد إلا أن الحروف التي أرسلها أثارت غضب المستشار، الذي احمر وجهه المستدير الأبيض وتصاعد الدم له قبل أن تزيحه يد سمراء من أمام الشاشة وصوت خشن يحاول أن يمنحه بعض الهدوء:

- خلاص يا سيادة المستشار حقك عليَّ أنا .. معلش ..سيبهولي أنا هتصرف ..

ثم ظهر الوجه الأسمر ذو الملامح الدقيقة الذي يتوسطه الشارب الكث والعينان السوداوان الضيقتان، مرتديًا حلة عسكرية بلون أزرق يعطي إشارة واضحة للقوات الجوية.

- في ايه يا عزيز مالك؟ بنقولك عايزين وزير الداخلية في المكتب هنا بعد ربع ساعة.. يعني عايزينه هنا بعد ربع ساعة.. تقولي رئيس الوزرا جاي بعد ٣٥ دقيقة والفطار والفطير والعسل الأسود .. هو أنا كل يومين هسمع كلمتين بسببك يا عزيز.. اتفضل ادي تعليماتك للتأمين يفتحوا بوابة المبنى الإداري .. وزير الداخلية بقاله ربع ساعة متحرك من القاهرة الجديدة يعني زمانه على وصول.. وافتكر كويس إن الموقف ده ما يتكررش تاني.. وافتكر إني حذرتك يا عزيز.

عيناه تضيقان وشاربه ينتفخ في إشارات تحذيرية يعرفها السكرتير جيدًا، راحت أصابعه تضرب الشاشة بحروف قليلة، بينما يتلفت هو ناحية المقاعد الخمسة الموضوعة في الشرفة

الكبيرة حول المائدة المستديرة، غير عالم بأنه سيحتاج مقعدًا سادسًا بعد دقائق.

إنها الظروف التي تفرض نفسها دائمًا ..

الظروف اللعينة –أو ما شابهها– هي من ستأتي بصاحب المقعد السادس..

*****

المشهد الثالث

نهار–داخلي

مقر رئاسة الوزراء-العاصمة الجديدة

ظهر الثالث عشر من فبراير عام ألفين وثلاثين

تعالت الضحكات من الجمع الجالس، وخصوصا مع كثرة دعابات رئيس الوزراء البريطاني المعروف بخفة ظله ولغته المصرية الشعبية المرحة.

لكن وزير الداخلية لم يكن يستطع أن يبتسم كثيرًا أو أن يقهقه ضاحكًا مثل رئيس الوزراء أو مثل نائبيه الجليلين.

هناك في جنبات عقله شيء ما يصرخ «لا أرتاح كثيرًا لذلك

الأخ الجالس على المقعد خلف رئيس الوزراء.. لا أرتاح له أبدًا»

فيجيبه الجزء الدبلوماسي «توقف عن ذلك وحاول أن تبتسم قليلًا .. كن دبلوماسيًا أو توقع أن يمنحك رئيس الوزراء أجازة مفتوحة قريبًا!»

- توفيق .. توفيق.

صوت رئيس الوزراء يأتي من داخل بئر مظلمة عميقة، بينما فصا عقل اللواء توفيق إسماعيل ما زالا يتصارعان.

- ما ترد يا بني آدم!

- ايوة أنا مع حضرتك .. اعذرني يا فندم كان معايا رئيس المباحث على السماعة الداخلية.

- أصل اللوا توفيق من الناس المخلصين جدًا لشغلهم ..وبيشرف على التحقيق في الجرايم الأربعة بنفسه.

ابتسم رئيس الوزراء البريطاني هازًا رأسه في أدب، بينما رفع الأخ الجالس بجواره عينًا رمادية باردة من خلف عويناته عديمة الإطار، وراح يتفحص توفيق.

- وده سبب الزيارة مستر برايم منستر.

قاطع توفيق رئيس الوزراء البريطاني بلا تفكير.

- سبب الزيارة ازاي؟

انطلق الشرر من عين رئيس الوزراء يحرق وجه توفيق، وكاد رئيس الوزراء أن يقتلع لسانه الطويل من حلقه، فتنحنح رافعًا يده اليمنى معتذرًا، بينما ارتسم شبح ابتسامة على وجه ذلك

الرجل الغامض الجالس خلف المستر برايم منستر.

- الأول قبل ما أجاوب على سؤال اللواء توفيق، أكيد تحبوا تتعرفوا على مرافقي اللي ما عرفش نفسه لسه.

- أكيد طبعًا نحب نتعرف عليه، مش كده يا سيادة الفريق؟

- آه طبعًا، طبعًا يا سيادة المستشار، ولو إن عندي فكرة عن شخصية ضيفنا العزيز.

ابتسامة الفريق شكري الثعلبية الشهيرة، التي اشتهر بها في كل لقاءاته التليفزيونية منذ أن أصبح نائبًا لرئيس الوزراء.

- طبعًا يا كولونيل شكري أكيد.

- فريق .. فريق يا سيادة الرئيس .. ما عندناش هنا كولونيل .. احنا دولة عربية.

ابتسم توفيق، فهو يعرف ما يقصده الفريق شكري، يعرف جيدًا ما يمثله الفريق شكري في هذه الجلسة، وفي أي جلسة مثلها في الواقع.

- طبعًا يا سيادة الفريك .. آنا بعتذر عن الغلطة دي.

ثم لف رأسه الأشقر نحو الضيف الغامض صاحب العوينات والعيون الرمادية وقال متابعًا:

- أعرفكم يا أعزائي بمستر مايكل .. مايكل سميث.

*****

المشهد الرابع

ليل–داخلي

مكتب رئيس الوزراء-العاصمة الجديدة

مساء الثالث عشر من فبراير عام ألفين وثلاثين

كان السيد وزير الداخلية في وضع لا يحسد عليه، فقد كان رئيس الوزراء كما يقول اللغويون «يرغي ويزبد ضاربًا بقبضته على جلد مكتبه الصغير كل خمس دقائق» بينما «يتطاير الشرر من عينيه والزبد من شدقيه».

هذا هو التعبير اللائق لوصف حالة رئيس الوزراء، وهو في وسط تلك المناقشة الحامية مع اللواء توفيق إسماعيل وزير الداخلية، أول وزير داخلية يرسم وزيرًا وهو دون الخمسين من عمره.

ومن اختاره، نعم، رئيس الوزراء نفسه، الذي يلوم نفسه الآن ألف مرة لأنه اتخذ هذا القرار، وأقنع به رئيس الجمهورية يومًا ما!

- يا فندم حضرتك اهدى بس واسمعني للآخر.

- لا مش ههدى يا توفيق .. مش ههدى يا أخي .. ومش عايز أسمعك ولا عايز أسمع الكلام اللي أنت ناوي تقوله .. أو حتى تفكر تقوله.

ثم تناول علبة سجائره المعدنية، وأشعل سيجارة نفث دخانها غاضبًا وهو يولي توفيق جانب وجهه، وينقر بأطراف أصابعه المدببة على المكتب. بينما يخفض توفيق صوته الأجش وهو يقول مشيرًا نحو سقف حجرة المكتب:

- إنذار الحريق غالبا هيشتغل يا فندم.

- معطله .. أنا معطله يا توفيق.

- طب ومعالي الدكتورة .. موافقة على الكلام ده؟

نظر رئيس الوزراء إلى توفيق شذرا، ثم تابع في سخرية:

- لا والغريبة إن ليك مزاج تهزر وتآفي كمان

- طب حضرتك هتفضل تعاملني بالطريقة دي كتير؟ .. أصل لو كده أقدم استقالتي وأريح حضرتك مني خالص.

التفت رئيس الوزراء نحو توفيق في حدة، وخلع عويناته الطبية الأنيقة ملقيًا بها بلا اهتمام فوق المكتب:

- يا ريت يا أخي .. يا ريت ..

ثم خفض صوته وهو يصوب نظراته النارية نحو عيني توفيق الضيقتين الرماديتين:

- وآهو تبقى رفعت عني الحرج اللي أنت اتسببت فيه .. بقى يا بني آدم ترفع ايدك في وش رئيس الوزراء البريطاني وتقوله «شششششش» ليه؟ .. ضابط عندك في الوزارة مثلًا .. ولا شغال عندنا؟

- يا فندم ما هو الكلام اللي اتقال ده ما يرضيش سعادتك برضه!

- تقوم تقوله «شششش» .. في طرق تانية كتير نعبر بيها عن عدم رضانا .. طرق أكثر تحضرًا ودبلوماسية يا معالي الوزير.

ثم راح يفتش على مكتبه عن شيء ما، بينما توفيق ينظر في

حرج إلى الحائط المقابل له. على الحائط، كان هناك عدة إطارات تحتوي على شهادات تقدير، وشهادتي دكتوراه، وصورة لرئيس الوزراء وهو يقسم اليمين الدستورية أمام رئيس الجمهورية. وبرغم غرابة الموقف، راحت الذكريات تتدافع أمام عيني توفيق.

منذ عام وخمسة أشهر، كان توفيق يخطو بحذائه الثقيل اللامع، وحلته الرمادية الأنيقة، وربطة العنق الزرقاء –التي ابتاعتها زوجته بمرتب شهر كامل- ويتنحنح في أدب.

كان رئيس الوزراء –كعادته منذ أن نصب رئيسًا للوزراء- منكفئًا على شاشة الكمبيوتر المحمول يراجع بيانات ملف ما من تلك الملفات الشائكة، عندما تنحنح توفيق من جديد.

- خلصت نحنحة؟

تصلب لسانه -الذي اعتاد أن يكون سليطًا طليقًا– بينما رئيس الوزراء يردد نفس السؤال، وعيناه لا تفارقان الشاشة.

- خلصت نحنحة؟

التفت توفيق حوله، فتفاجئ أن مدير مكتب رئيس الوزراء قد رحل، وقد أغلق الباب في هدوء:

- تعالَ يا سيادة اللواء، اتفضل.

تقدم توفيق بساقين كعودي المعكرونة المسلوقة، وجلس على المقعد المقابل للمكتب الصغير الأنيق، كان ما يسيطر على عقل توفيق الآن سؤال واحد فقط، ولدهشته، كان هذا آخر سؤال قد يخطر بباله الآن.

- ما تستغربش، مش لازم يكون مكتبي طوله عشرة متر في خمسة متر، المكتب ده خشب زان أصلي وعندي من أيام ما كنت وزير تخطيط، وتقدر تقول بتتفائل بيه.

- سعادتك بتقرا أفكاري ولا ايه؟

خرجت الكلمات من بين شفتي توفيق بصوت خفيض، صوت يكاد يسمعه هو! بينما رفع رئيس الوزراء عينيه، ونظر إلى توفيق نظرة مطولة خاوية من فوق عويناته المستديرة، ثم قال:

- شربت قهوتك؟

- أيوة يا فندم.

- عجبك البن بتاعنا؟ أصل أنا أسمع إنك ذواقة.

- كويس يا فندم .. كويس.

ابتسم رئيس الوزراء ابتسامة واسعة، ثم نهض من مكانه، فهب توفيق واقفًا، لكنه أشار له بطرف يده فجلس من جديد، والتف رئيس الوزراء حول المكتب الصغير، ثم جلس على المقعد المقابل لتوفيق.

- طبعًا أنت زمانك دلوقتي بتسأل نفسك، أنا استدعيتك هنا ليه.

- صحيح يا فندم .. صحيح.

ضحكة خافتة صدرت من رئيس الوزراء، وهو يمد ساقيه مريحهما من أثر الجلوس، وقال هو يفرك عينيه في إرهاق:

- يا أخي أنا سمعت إنك ذكي جدًا لدرجة العبقرية، بس أنا

شايفك قاعد مكعبل في بعضك، وعمال تكرر في الكلام، وما فكرتش لحظة في سبب استدعائك هنا.

في الحقيقة، فكر توفيق كثيرًا جدًا في سبب لهذا الاستدعاء المفاجئ، منذ أن جاءته مكالمة اللواء شكري وزير الداخلية الأسبق، والتي كانت صارمة وقاطعة ومقتضبة.

- بكرة هتروح مكتب رئيس الوزراء الساعة ستة مساء، وابقى البس بدلة وكرافتة كويسة، بلاش الهرجلة اللي أنت فيها.

تنحنح من جديد، ثم اعتدل في جلسته من جديد، وهو يفرد رابطة العنق فوق بطنه المغلف بالقميص السماوي:

- الحقيقة يا فندم، أنا فكرت في مليون سبب، بس الحقيقة ذكائي عاجز إنه يوصل للسبب الحقيقي.

- رئيس الوزراء مستدعيك لمكتبه بعد ما رئيس الجمهورية كلفه بتشكيل الحكومة الجديدة، يبقى مستدعيك ليه يا توفيق؟

ازداد توتره، وأوشك على قضم ظفر أصبعه الإبهام -كعادته كلما توتر- لكنه تراجع، بينما ابتسم رئيس الوزراء وربت على فخذه مشجعًا:

- أنا متابع شغلك يا توفيق من ساعة ما بقيت مساعد وزير، وعاجباني طريقتك في معالجة ملفات كتير أوي أوي، وخصوصًا المتعلقة بالتعامل مع الشارع والقضايا الشائكة، والصراحة لما اللواء شكري رشحك، أنا وافقت بشدة على الترشيح ده.

- تر تر .. ترشيح ايه يا فندم؟

ابتسم رئيس الوزراء من جديد وهو ينهض من فوق المقعد

الجلدي المريح، والذي تحول إلى دكة خشبية جافة بالنسبة لتوفيق، وقال بينما يتوجه ناحية تلك الصورة التي يقسم فيها اليمين:

- احنا محتاجين دم جديد في الوزارة يا سيادة اللواء، دم جديد عنده استعداد يخدم البلد دي بنشاط وكفاءة، وأنت هتبقى من أول بوادر الدم الجديد ده.

قطع صوت سعال رئيس الوزراء شريط ذكرياته، فالتفت بعينين خاويتين نحو رئيس الوزراء، الذي كان قد وجد ضالته أخيرًا، ورفع الورقة التي كان يبحث عنها أمام عيني توفيق:

- دي أسامي الضحايا الأربعة، دكتور بدر الدين علي، طبيب الجهاز الهضمي المعروف، طبعًا عارف ده كان بيعالج مين.

- مفهوم سعادتك مفهوم.

- دكتور حسن ابو النجا، طبيب أمراض الدم، الراجل اللي اخترع أقراص علاج الأنيميا، وده بقى دكتور فوزي حسين، أخصائي الصدر، أما بقى الرابع ده، فهو أصل المشكلة.

بدا توفيق كإنسان اللي هو يردد الاسم الرابع في خفوت:

- دكتور مهدي عطالله، أخصائي أمراض الـ

- السير مهدي عطالله يا عبقري زمانك، السير مهدي عطالله يا معالي الوزير.

*****

المشهد الخامس

ليل–داخلي

مصلحة الطب الشرعي -القاهرة الجديدة

مساء الثلاثين من يناير عام ألفين وثلاثين

جلست إيرين بقامتها النحيلة، وعويناتها التي تملأ نصف وجهها، تراقب شيئًا ما على شاشة متصلة بمجهر. كانت تدندن أغنية رومانسية شديدة الحنان لفيروز، وهو ما لا يتناسب أبدًا مع ما تراقبه على شاشة ذلك المجهر، كانت تراقب كلمات كتبت بحبر أحمر ما على قطعة من الورق المقوى، وجدها رجال المختبر الجنائي أسفل الجثة، وانتشرت بقع من ذلك الحبر على أطراف الورقة بشكل عشوائي، صانعة لوحة فنية من الأحمر والأبيض، جديرة بأن يطلق عليها عنوان واحد.

الموت ..

رن الهاتف الداخلي بجوارها بنغمته الجامدة المتقطعة المزعجة، فضربت بطرف أصبعها الخنصر على زر أخضر لتشغل مكبر الصوت.

- مساء الخير يا دكتورة.

صوت كريم العابث اللاهي، الشبيه بصوت مذيع راديو شهير في أوائل الألفية، يخرج من مكبر الصوت.

- مساء الخير يا كريم باشا.

- باشا .. وماله .. ايه الاخبار؟

- أخبار ايه بالضبط عشان مش فاهمة؟

أجابت في برود وهي لا تزال تقرب الصورة لتفحص أطراف الحروف في الجملة المكتوبة.

- أخبار الجثة الثالثة يا دكتورة.

- زيها زي الأولانية والتانية .. مفيش جديد .. نفس الطريقة .. نفس القلب المقلع من مكانه بعنف والريشة البيضا.. نفس الأخبار.

غمغم كريم ببضع كلمات لم تسمعها في الواقع، وراحت ترد ببعض الردود المعلبة على غرار «ممم» و«آكيد» و«طبعًا» وهو ما أتى بنتيجة يعرفها الجميع.

- ايه اللي طبعًا يا دكتورة؟ بقولك أنتِ هتخلصي فحص الجثة امتى والتقرير هيجيلنا الإدارة امتى؟

- ها .. لا هيجي طبعًا .. قريب قريب .. بقولك ايه يا كريم باشا .. تعرف حد من صحابك يعني يصادف إنه يكون بيعرف في التوراة؟

- توراة .. لا الحقيقة ما يتهيأليش .. أصل أنا وكل اللي من عينتي ما بنروحش كنيسة بقالنا زمن.. آخر حاجة أفتكرها عن التوراة كانت..

- شكرًا يا كريم باشا .. أول ما يطلع التقرير هكلمك على طول .. سلام.

وبنفس البنصر، ضغطت زرًا أحمر لتنهي تلك المكالمة التي لا طائل منها.

لماذا لم يعد كريم ومن على عينته يذهب إلى الكنيسة؟

لماذا توقف الناس عن الذهاب للصلاة؟

- أسئلتك كترت يا إيرين .. وأنتِ مش محتاجة تسألي الأسئلة دي دلوقتي.

التفت نحو يسارها في حدة، ثم ابتسمت تلك الابتسامة التي تعرفها جيدًا، ابتسامتها التي لم تكن ترسمها على وجهها إلا عندما ترى وجهه العجوز المتغضن، وعويناته المستديرة عديمة الإطارات، والشيب الذي غزا رأسه المستدير.

- هو انت ازاي لسه بتظهرلي وبتكلمني؟

- وايه اللي يمنع؟ هو مش أنتِ عارفة إني مجرد خيال بينتجه عقلك الباطن؟

- عارفة .. ومستغربة.

- مستغربة ليه؟

- أصل مفيش خيال بالوضوح والنقاء.

يبتسم خيال الرجل العجوز ابتسامته التي أغرمت بها –وما زالت– وقال في عملية شديدة لا تليق بخيال من صنع بنات أفكارها:

- ايه بقى .. ايه الموضوع اللي قدامك ده، وليه عايزة حد بيفهم في التوراة؟

- عشان عايزة أفهم معنى الجملة دي.

- الجملة مفسرة نفسها يا إيرين.

يقترب الخيال العجوز في هدوء، ويخلع عويناته الأنيقة وهو يغلق عينًا ويفتح عينًا، وكأنه يستخدم مجهرًا:

- ما أنا خيالك عني يا إيرين .. وأنا أكيد ما كنتش بعرف أستخدم المجهر أبو شاشة ده.

للمرة الأولى منذ شهر ضحكت، ضحكت بصوت مرتفع أدهشها، واقتربت من الخيال العجوز وهي تشاركه النظر، بينما هو يقرأ الجملة المكتوبة بحبر أحمر قان.

- وإذا كان على إنسان خطية حقها الموت .. فقتل وعلق على خشبة .. دي أعتقد من سفر التثنية.

- تثنية ٢١ .. بس مش فاكرة رقم الآية.

- وعايزة رقم الآية ليه؟

- عشان عايزة أعرف اللي بعدها .. لأن في علامات غريبة في الجثة .. علامات تبين إن في تعامل عنيف حصل معاها .. بمعنى أصح .. اتعلقت في خشبة واتربطت بحبال نايلون بعنف أوي.. واتسابت لحد..

ظهر التقزز على ملامح وجهه المليء بتجاعيد وهمية، وقاطعها مندهشًا:

- من امتى وانتي بتحكي عن الجرايم بالاستمتاع ده؟

- مش أنت اللي علمتني إني أكون عملية وأتعامل مع الجثث على إنها عدة الشغل؟

- أنا عمري استخدمت التعبير ده؟! عدة الشغل؟

- دكتور علام .. بلاش تمتحن ذاكرتي أنا.

ابتسم الخيال العجوز، ثم وضع عويناته على عينه من جديد، ثم جلس فوق المقعد المعدني الصغير المقابل لمكتبها.

- طيب ما تدوري عليها على جوجل

- تصدق برضه إنك أنت اللي قولتلي إن رجل العلم ما يستخدمش البحث العشوائي في شغله.. وإن مليون مرجع أحسن من مليون موقع وإن...

- إيرين .. أنا فعلًا قولت كده .. بس أنا خلاص يا إيرين .. مش موجود .. مت .. ولازم تفتكري ده كويس أوي.

ثم نهض، وربت على وجنتيها الغائرتين متابعًا:

- فلا تثبت جثته على الخشبة بل تدفنه في ذلك اليوم لأن المعلق ملعون من الله .. دي الآية اللي بعدها.

- وأنت عرفتها ازاي .. أنت مسلم يا دكتور!

- أنا عمري ما عرفتها يا إيرين ولا عمري قريت التوراة في حياتي .. الإجابة يا بنتي في دماغك أنتِ.. ببساطة يا إيرين لأني....

أشاحت بوجهها إلى طاولة الفحص، فوقعت عيناها على الجثة شاخصة البصر، والعينان الزرقاوين، والأنف المدبب الشبيه بأنوف قياصرة روما.

- أنا مجرد خيال يا إيرين .. خيال .. خيال.

راحت الكلمة تتردد في أذنها، فأغلقت عينيها، وضغطت جفنيها

في عنف وهي تغالب دموعًا حاولت أن تهرب من مقلتيها، بينما كلمة خيال تتردد في أذنها، وفي عقلها، وتهز كيانها بالكامل.

لكنها فتحت عينيها، وتركت الدمع ينساب في نهرين صغيرين على وجنتيها الشبيهتين بهضاب الحبشة، والتفت ناحية الخيال العجوز، الذي ما زال يجلس فوق المقعد المعدني، ويشير لها بطرف عويناته الأنيقة نحو الشاشة:

- السؤال الأهم اللي ما سألتيهوش لنفسك .. القاتل ده عايز ايه؟

كانت تحاول مغالبة دموعها، ومغالبة الغصة في حلقها، ومغالبة حنين لأن تندفع إلى صدره وتعانقه باكية على معطفه ناصع البياض، لكنها تذكرت إنها ببساطة، تتكلم مع نفسها ليس إلا!!

- مش عارفة .. بس ليه بيكتب الآيات دي من التوراة والإنجيل والقران بالحبر الأحمر جنب الـ....

- حبر ايه يا إيرين .. أنتِ حللتِ الحبر ده؟

- حللت الايه؟!

طقطق بفمه مصدرًا صوتًا استنكاريًا مكتومًا، وهز رأسه في أسى:

- شوفتِ بقى .. بتركزي في ايه من كلامي وبتنسي ايه؟

- أنا بس مش ...

- لا ما تمشمشيش يا بنتي .. ركزي كده في اللي قدامك وقوليلي .. ما هو نوع الحبر الذي يتجلط بهذه الطريقة وينتشر بتلك

الفوضوية اللونية على الورق؟

قربت الصورة من جديد، وراحت تراقب أطراف الحروف، التغير في الألوان، درجات اللون الأحمر المختلفة في الانحناءات، النقاط العشوائية الحجم في أطراف الورقة، كأنها ....

- دم .. ده دم!

ثم التفت ناحية الخيال العجوز، الذي صفق بيديه في هدوء، ثم أشار إلى الوريقات الأخرى، والتي اصطفت صور فوتوغرافية لها على شاشة العرض البيضاء.

- آية من الإنجيل مع أول ضحية .. آية من القران معتاني ضحية .. آية من التوراة مع تالت ضحية .. وكلهم بيتكلموا عن الملاعين الخارجين من الملكوت والرحمة.. يبقى ايه؟

ثم صمت وهو ينظر لها تلك النظرة التي تعرفها، أو التيكانت تعرفها، والتي ورثتها عنه كأنها ابنته من لحمه ودمه، أو كأنها حفظتها حتى تخرجها للعلن عندما تصل إلى لحظة الحل..

لحظة الحقيقة ..

تناولت الهاتف الداخلي وضغطت زرًا يوصلها بمكتب أحد الأصدقاء القدامى، أو لنكن أكثر دقة، أحد من يذكرونها بالخيال

العجوز الحكيم.

- مساء الخير يا إيرين .. أي رياح طيبة ....

- هي مش طيبة ولا حاجة .. بس أنا محتاجة رأيك ضروري.

- محتاجة رأي ولا أنتِ عندك رأي فعلًا ومستنية تسمعي مني تأكيد؟

- بطل ألعاب الكلام دي معايا يا مصطفى يا حلواني.

ضحك ضحكته المجلجلة العالية، حتى أنها أبعدتالسماعة عن أذنها قليلًا، ثم عادت تتحدث بلهجة شبيهة بفتاة في العاشرة تترجو من خالها أن يحضر لها كيسًا من حلوى الجيلي كولا.

- طب عشان خاطري .. تعالى وهطلبلك كومبو .. وبطاطس لارج.

- لا أنا عامل دايت .. ودايت قاسي كمان.

- نص كباب ونص طرب يا حلواني.

- عشر دقايق وهبقى عندك.

ثم وضع السماعة، فانفجرت الضحكة من بين شفتيهامجلجلة عالية، حتى كادت توقظ جثة الطبيب الشهير، الراقد تحت غطاء سماوي باهت فوق طاولة الفحص. خلعت عويناتها ووضعتها على الطاولة، ثم مشت في هدوء ناحية الجثة الوقور.

كيف تكون الجثة وقورًا، هي لا تعرف، لكنها تعرف أن بعض الجثث يمنحها الموت وقارًا زائدًا.

يجعل منها الموت أكثر هيبة، واكثر حكمة.

قطع اهتزاز الهاتف المحمول فوق مكتبها خيط أفكارها الفلسفية، فاتجهت نحوه في هدوء وأجابت دون أن تنظر إلى الشاشة:

- مساء الخير يا دكتورة.

صوت كريم الحالم الهادئ يأتي عبر موجات الجيل الخامس.

- أنت عرفت رقم موبايلي منين يا كريم باشا؟

- أنا ضابط شرطة يا دكتورة .. ثم إننا شغالين في قضية مع بعض وحضرتك رقمك موجود في السجلات عادي.. ما هوش سر حربي يعني.

ابتسمت لسخافة سؤالها، ولسرعة بديهته، لكنها حاولت الاستمرار في رسم الصورة الجادة عن الدكتورة إيرين شكر الله.

- خير يا كريم باشا .. في حاجة أقدر أساعدك فيها؟

- أنتِ في مكتبك في المشرحة ولا روحتِ؟

- ليه .. خير؟

- أصل أنا هجيب اتنين لاتيه من ستاربكس وهجيلك عشان أنا عندي أخبار طازة.. فقولت لازم ألحقك بيها قبل ما تعرفيها من برة.

- أخبار ايه؟

صمت كريم للحظات، حتى ظنت أنه أغلق الخط أو أن هاتفها عاد يلعب معها لعبة الشبكة الضعيفة من جديد، وهي لا تقوى

على شراء هاتف جديد لأن راتبها ......

- الحقيقة دي حاجات ما تتقالش في التليفون .. وخصوصًا إن الضحية المرة دي معاه باسبور بريطاني وعنده لقب سير من سنة.

- ضحية ايه .. هو في ضحية جديدة؟

تغيرت لهجة كريم، وانتعش صوته متحولًا إلى صوت مذيع في نشرة أخبار التاسعة مساء، يذيع خبرًا عن تحطم طائرة فوق رمال الصحراء:

- طبعًا .. أومال أنا جاب اللاتيه وجاي ليه .. عشان نكون في استقبالها سوا .. دي هتبقى سهرة جميلة .. حاجة كده شبه سهرة خالد الصاوي وشومان في أدرينالين .. فاكراه ده اللي.....

قطعته قبل أن يسترسل في استعراض معلوماته المبهرة عن أفلام بداية الألفية، وقالت في هدوء:

- لا لو كده خلي اللاتيه تلاتة بقى يا كريم باشا.

- ليه .. هو احنا جايلنا ضيوف؟

- آه .. ضيف مهم جدًا .. المهم خلي اللاتيه تلاتة .. آه .. لبن قليل الدسم ..ومن غير سكر.

ثم صمتت وهي تنظر إلى الجثة المهيبة الراقدة أمامها، وأضافت في هدوء:

- أصله عامل دايت.

*****

المشهد السادس

نهار – داخلي

منزل العقيد محمد حارس جاد المولى - مصر الجديدة

صباح الخامس عشر من فبراير عام ألفين وثلاثين

اعتاد حارس –كما يسميه أصدقاؤه ومرؤسؤه ورؤوساؤهوتلك السيدة التي تبيع البخور أمام منزله- أن يستيقظ مبكرًا، يحلق ذقنه، ويقف أمام المرآة خمس دقائق كاملة، يراقب فيها ملامح وجهه التي أدرك -مؤخرًا- أنها شاخت قليلًا.

يقطع هذه اللحظات غسيله لأسنانه المصفرة بفعل التبغ، وإنصاته لصوت قطرات الماء المتساقطة من صنبور الحمام التالف، وصوت الفرشاة الكربونية وهي تمشي فوق حافة ضرسه الخاوي مكشوف العصب، ثم صوت المضمضة المكتوم، يعقبهم صوت تدفق المياه للحظات.

ثم يعود من جديد ليحدق في ملامحه، وقسمات وجهه الوسيمة، والتجاعيد التي بدأت تحفر أطراف عينيه وجوانب فمه.

- صباح الخير يا محمد يا ابني.

سمع الصوت الدافئ الحنون يأتي من الصالة من خلفه، صوت حماته ذات الثمانين عامًا، الشخص الوحيد الذي يناديه باسمه الأول، ذلك الاسم الذي نسيه من قلة استخدامه، أجاب بصوت خفيض، وكأنه يتعمد ألا تسمعه:

- صباح الخير يا سعاد

تعود أن يناديها باسمها المجرد، منذ أن عاشت في منزله، أو عاش هو في منزلها. في الواقع هو لا يتذكر من منهما يعيش في منزل الآخر، فالذكريات اختلطت وامتزجت حتى أصبحت...

- يووه .. بقول صباح الخير يا محمد.

رافعًا صوته هذه المرة، وهو يجفف وجهه من آثار تلك الكولونيا الحارقة، والتي يصر على استعمالها بعد حلاقة ذقنه كل صباح:

- صباح الخير يا سعاد، صباح الخير يا ستي.

- أحضرلك الفطار؟

- ومن امتى وأنا بفطر يا سعاد؟

ضحكت ضحكتها الخافتة الشبيهة بانزلاق عجلة خشبية فوق سطح من الزجاج المصقول، وقالت في هدوء:

- يوم الجمعة يا محمد، أنا اللي بحضر الفطار يوم الجمعة، وأنت ما بتفطرش إلا يوم الجمعة.

- الجمعة!!

فتح عينيه على آخرهما، وراقب وجهه المندهش من جديد في مرآة الحمام. الجمعة، إنه يوم الجمعة على ما يبدو!

ولكن، لماذا قد يحدث هذا فارقًا في مسألة إفطاره؟

- سعاد، أنا ما فطرتش يوم الجمعة بقالي سنة ونص، من ساعة ما سلمى....

قاطعته بصوت تعمدت جعله عاليًا حازمًا:

- الله يرحمها ويحسن إليها، قصره، هتفطر ولا أفطر لوحدي؟

حماته –أم زوجته المتوفية- التي لا تتذكر مما حدث في عام ونصف إلا وفاة ابنتها بسرطان القولون، لا تتذكر شيئًا من عام ونصف سوى أنها أصبحت يتيمة كما تقول، أمًا يتيمة.

- وهو اليتم بس إن أبوك وأمك يموتوا؟ أنا ما كانش لي إلا سلمى، كانت أمي وأبويا، ومن يوم ما راحت وأنا يتيمة، يتيمة زي ما يكون أمي وأبويا ماتوا تاني.

ترن كلماتها في أذنه كل صباح، كل صباح وكل مساء وكل ظهيرة، في الواقع هي ترن في أذنه في كل لحظة.

ربما لأنه شعر باليتم كذلك عندما رحلت سلمى.

لا يذكر محمد حارس جاد المولى المصري إذا كان قد رأى الحاج جاد المولى من قبل.

هو يعرف أن اسمه مركب، محمد حارس، وهو اسمأطلقه عليه الحاج جاد المولى قبل أن يرحل إلى مكان ما، ثم يرحل عن العالم في يوم من الأيام وابنه البكر ينتظر نتيجة الابتدائية بشغف كبير كأنه سيغير العالم.

بل إنه لا يذكر من وجه أمه الحاجة فاطمة، سوى شذرات من ابتسامات وكلمات في أغاني مهد سخيفة تتحدث عن ذبح أجواز الحمام وحج بيت الله.

اليوم الجمعة، وهو لا يتذكره، لأنه توقف عن تذكر يومالجمعة منذ أن رحلت سلمى.

ارتدى ثيابه على عجل، ووضع عويناته السوداء القاتمة، وراح

يعقد رباط حذائه الخفيف وهو يحدق في شاشة التليفزيون التي تذيع فيلمًا ما من تسعينات القرن العشرين.

- أنت خارج؟

- اه يا سعاد، رايح مشوار كده.

- هو أنت مش ناوي تصلي الجمعة تاني؟

- هو أنتِ كل جمعة هتفتحي السيرة دي؟

مصمصت شفتيها في اعتراض، ثم راحت تكمل مطالعة الفيلم السخيف وهي تمضغ لقيمات من الفول والجبن، وتهز قدميها المتضخمتين من اثر الدوالي في خفيها الطبيين.

لماذا توقف عن الصلاة؟

هو لا يتذكر لماذا كان يصلي من الأساس.

ربما وجد نفسه يومًا يقف فوق سجادة الصلاة المزركشة في ليلة امتحان اللغة العربية في آخر سنينه الثانوية، وراح ينظر إلى تلك المئذنة المنسوجة بخيوط ذهبية، ثم نظر إلى صورة أمه التي تتوسط الحائط في منزل خالته، وتذكر كلمات خالته عن «من يستعن بالله يعنه» أو ربما كلمات زوج خالته عن « تارك الصلاة» ثم رفع يديه إلى أسفل أذنه، وكبر تكبيرة الإحرام بصوت عال.

يذكر أنه استيقظ يومها، فذهب إلى الامتحان وأجاد إجابة كل الأسئلة، حتى أنه حل قطعة النحو بلا خطأ واحد -وهو شيء لو تعلمون عظيم- فارتبط بالصلاة كما لم يرتبط بشيء.

حتى عندما قال له أستاذ اللغة الجغرافيا ذو اللحية الطويلة:

- أنت ما حلتش حلو عشان صليت وبس، أنت حليت حلو عشان أنت آخذت بالأسباب وذاكرت.

لم يتوقف عن الصلاة ليلة كل امتحان وصبيحة كل امتحان، وليلة النتيجة، وليلة نتيجة السنة النهائية في كلية الشرطة، وليلة تقدمه لخطبة سلمى من سعاد، الأرملة ذات السبعين عامًا، والتي أنجبت فتاة جميلة في أواسط أربعيناتها، فتعاملت مع الأمر أنه معجزة ما، قبل أن يموت زوجها والفتاة ما زالت في سنين الرضاعة.

الأفكار تأكل ذيول بعضها كثعابين مجنونة في قفص عقله الذي لا يتوقف عن الدوران، بينما يحاول جاهدًا إحكام رباط الحذاء.

- ما قولتليش يا محمد، مش ناوي تصلي الجمعة بقى؟

الألزايمر اللعين، يأكل خلايا مخ المرأة الثمانينية المرحة، أو التي كانت مرحة.

- لا يا سعاد، رايح لواحد حبيبي عشان هنتكلم في موضوع مهم.

- هتسيب صلاة الجمعة وتروح تتكلم في مواضيع؟

- معلش .. هبقى أصلي الأسبوع الجاي.

أحكم الرباط من جديد، ثم نهض وهو يعدل ثيابه، وتجاهل -كعادته- النظر لنفسه في تلك المرآة العملاقة، التي وضعتها سلمى يومًا بجوار باب الشقة.

المرآة التي يعلق صورتها فوقها، وهي تبتسم ابتسامتها اللامعة

العريضة، قبل يومين من أن يكتشفا أن السرطان يعبث في قولونها المسكين.

والآن، تذكر محمد حارس جاد المولى ..

لماذا لا يصلي.

*****

المشهد السابع

ليل – داخلي

مكتب وزير الداخلية - القاهرة الجديدة

مساء السادس عشر من فبراير عام ألفين وثلاثين

- هات يا ابني قهوة لسيادة العميد من البن بتاعي.

- عقيد يا معالي الباشا .. لسه عقيد.

- بعدين يا محمد باشا .. بعدين.

«هو ايه اللي بعدين» ترددت الجملة في رأس محمد حارس، بينما ارتسم تعبير جامد صلب على وجهه وكأنه قناع مصنوع من الجلد.

- ازيك يا محمد باشا.

- بخير يا فندم الحمد لله.

- وأخبار المباحث الجنائية ايه؟

- تمام يا فندم الحمد لله.

«هو احنا مش هنخلص من المقدمات بقى» راحت الجملة تتردد في جنبات عقله من جديد، بينما ترتسم ابتسامة رسمية باهتة على قناعه الجلدي.

- طبعًا أنت زمانك بتسأل نفسك .. ايه اللي يخلي توفيق اسماعيل يفتكرني بعد العمر ده كله.. وأكيد مش ناسي الأيام اللي اشتغلنا فيها سوا في المباحث الجنائية .. بحلوها ومرها.

«قصدك بمرها وعلقمها» ابتسامة باهتة جديدة ترتسم على القناع الجلدي.

- كانت أيام جميلة يا باشا.

«قصدك كانت أيام منيلة يا محمد يا حارس .. هو أنت هتضحك علي ولا هتضحك على نفسك»

هذه المرة اتسعت ابتسامة توفيق .. وتحول قناعه الجلدي السميك –والأكثر سماكة من كل أقنعة أهل الأرض- إلى لوحة بعنوان (ابتسامة رسمية صفراء منذرة بالويل)

- عندنا قضية صغيرة كده .. ومحتاجين مجهوداتك العظيمة فيها.

- بس معاليك عارف إني قدمت استقالتي من الخدمة خلاص .. والشهر ده المفروض آخر شهر ليا.

- اديك قولت أهو .. الشهر ده .. والنهاردة ستاشر منه .. يعني لسه معانا ١٢ يوم.

اعتدل حارس في مقعده الجلدي المريح، وهرش أنفه في حركة عصبية منحت توفيق مقدمة لا بأس بها عن رد الفعل.

- الإدارة مليانة ضباط أكفأ وأقدر مني يا معالي الوزير .. وكلهم قادرين يحلوا أي قضية مهما كانت صعبة .. والفضل يرجع لمعاليك وللفكرة العبقرية بتاعة التدريب في سكوتلانديارد.

- ما تسيبك من شغل المؤتمرات الصحفية ده .. وتخليك معايا على ارض الواقع كده؟

- وايه اللي على ارض الواقع ومعاليك عايزني أشوفه؟

عاد توفيق بظهره إلى الخلف فوق المقعد الجلدي الوثير، وأشعل سيجارة من علبته الأمريكية. سيجارته التي لم يتوقف عن تدخينها منذ عشرين عامًا، والتي لم تعد تنتجها الشركات بنفس الكثافة مؤخرًا.

- الدخان هيضايقك؟ لو هيضايقك قولي .. أصل أنا بصراحة ما بعرفش أشرب البتاع اللي بيسخن التبغ ده .. أنا عارف إنه صحي أكتر وكل حاجة بس..

- انا ما بدخنش يا فندم .. فكله عندي سواء.

- والشيشة دي ايه يا محمد باشا؟ تدخين ولا فيتامينات للرئة؟

- دي تسالي معاليك .. ومش كل يوم يعني.

حارس لا يحب الدفاع، ولا يحب المواقف الملتبسة الغامضة عديمة العناوين، لذا فكان لا بد أن يحدث ما حدث.

- توفيق باشا .. هو أنا هنا ليه؟

- أنت هنا عشان أبشرك .. ألف مبروك .. اسمك نزل في الحركة

الجاية وبقيت عميد .. أنا لسه ماضي القرار من شوية.

- حضرتك عارف إني مستقيل .. وإني عارف من ساعة ما خلصت تدريب سكوتلاند يارد يناير اللي فات إني هترقى .. يعني مفيش جديد؟

توفيق كذلك ليس لقمة سائغة، وإذا كان هناك سر لنجاح توفيق، ولترشيحه ليكون أصغر وزير داخلية في تاريخ مصر الحديث، فهو أنه لا يمضغ بسهولة أبدًا.

- صحيح .. كلامك صحيح نظريًا .. بس عمليًا فيشوية معوقات كده.

- معوقات ايه لا سمح الله؟

- أصل اللايحة الجديدة اللي اتمضت في يناير اللي فات قبل التدريب .. كانت بتقول إنك لازم تقضي في الخدمة جوة المباحث الجنائية ست شهور بعد التدريب.

- ده في حالة استمراري في الخدمة .. لكن في حالة الاستقالة يسقط هذا البند .. لا يا فندم أنا مذاكر اللايحة كويس.

خرجت الضحكة المستفزة الباردة اللئيمة من بين أسنان توفيق، أعقبتها سحابة دخان كثيفة، وتوفيق يتابع وهو يراقب الدخان المتجمد في هواء حجرة مكتبه:

- ده في حالة إذا قبلت الاستقالة يا محمد باشا .. لكن الحقيقة الاستقالة غير مسببة.. وأنت عارف أن اللايحة الجديدة بتقول...

راح توفيق يردد بنود اللائحة الجديدة، والتي كانت أول أعماله

المباركة بعد أن نصب وزيرًا للداخلية، وكانت سببًا في خلافات عديدة مع العديد من الضباط الكبار، لكن توفيق إسماعيل مثله مثل رئيس الوزراء، لا يخسر معاركه أبدًا!

- بس .. شوفت الموضوع بسيط ازاي؟

- حضرتك عايز مني ايه يا توفيق باشا .. ما نتكلم بصراحة كده.

- يعجبني الكلام ده اوي اوي .. بس نشرب اتنين قهوة كمان .. ونكمل كلامنا.

- هو احنا كنا شربنا الاتنين الأولانيين يا فندم؟

ضرب توفيق المكتب بحركة حاول جعلها عصبية غاضبة، إلا أن افتعالها المبالغ فيه جعلها كوميدية شبيهة بحركات عادل أمام في عزه!

- شوفت ولاد اللذينة .. اطلب القهوة وما تجيش .. ينفع الكلام ده؟

- معلش يا فندم .. سامحهم .. عساكر غلابة ومحتاجين توجيه زي ما سعادتك علمتنا.

رفع توفيق سماعة الهاتف الداخلي، وضرب زرين وهو يكمل كلامه:

- لا برضه ما ينفعش .. طب قول الواحد بينسى عشان .. أيوة يا ابني .. هات اتنين قهوة من الـ...

- بلاش تقوله من البن البتاعي أحسن ما تجيش النهاردة.

ابتسم توفيق لدعاية حارس، أو لنقل، ابتسم معجبًا بذهنه الحاضر وعقله الذي لا زال يعمل، وهي في رأي توفيق، عملة شديدة الندرة.

- هات اتنين قهوة .. المظبوطة بتاعتي والـ ..

ثم ترك السماعة وابتسم ابتسامة عريضة في وجه محمد حارس:

- قهوتك ايه يا محمد باشا؟

*****

المشهد الثامن

نهار – خارجي

في وقت ما في يوم ما ..

في مكان ما ..

الشمس تسطع فوق رأسي

قد تبدو هذه الجملة عادية .. مستهلكة .. تهتكت كلماتها وتآكلت أطراف حروفها من كثرة ما استخدمت .. لكنك لو اقتربت قليلًا لعرفت أنها لا تبدو كذلك بالنسبة لي. اليوم أخرج لأول مرة منذ أن جئت هنا في وضح النهار. منذ أن طلب مني سيدي أن أصبر وأن أتجلد .. وأن أعتصم بالكهف المظلم وسط الهوام وسلاطين الليل.. وأن أنتظر اليوم الذي تطلبني فيه الشمس فأخرج مطيعًا مستسلمًا .. موقنًا بإرادة الرب الخالق.

سيدي فقط هو من عرف الرب الخالق وربما رآه أو سمع منه. لا

أحد يعرف. لكن سيدي الذي خلقه الرب من حمو الطين ثم نفخ فيه من نوره وخلق له معلمه ومستشاره. ثم أذن له فخرج إلى العالم ليعمره ويأتي بنا جميعًا.

من نحن .. لم أكن وقتها أعرف نحن ولا هم ولا حتى من أنا.

لا أذكر شيئًا سوى ذلك اليوم المشرق .. عندما فتحت عيني للمرة الأولى فرأيت ذلك الخطم يتشممني في حنان ..

ربما بكيت أو ضحكت أو أصدرت أصواتًا مما يصدرها بنو البشر.. ربما التقى الخطم بأنفي فتآلفا وتحابا.

كنت طفلًا رضيعًا عظيم الانف .. يومها عندما شممت الرائحة من ذلك الخطم .. عرفت ما تخفيه هذه الرائحة الكريهة من روعة وألفة وحنان..

كبرت واشتد عودي .. أرضع من أثداء الهوام وألوك نبت الصحراء وأشرب من حفر الأمطار -وي الندرتها- ثم أنام ملتحفًا بفراء من نفقوا أو من قتلهم جنود الملك.

حتى عندما جاءني صديقي ذو الخطم الكبير برقع من قماش أبيض .. كيف عرفت أنه كان قماشًا .. لربما علمني سيدي في زياراته المتكررة لي ما القماش وما الصحراء وما الأمطار ..

لربما خلق العلم في منذ أن صنعني الإله الأعظم في رحم أمي ..

أو ربما علمني سيدي أن أنظر إلى ما تفعله ملوك الليل في موتاهم .. كيف تحفر بخطمها ومخالبها الأرض ثم تواري سوأة أخيها.. لم أمشِ مثلها على أربع ولم يصنع هذا فارقًا .. منذ البداية عرفت الهوام أنني لست منها .. لكنها ستحبني وتحميني لأن سيدي العظيم طلب ذلك .. سيدي سيد الأرض وملك ملوكها.

أذكر يوم جاءني منذ .. منذ .. لم أعد أدرك الأيام والشهور والسنين .. ربما جاءني منذ يوم أو منذ عام أو منذ شهر.

كل ما أذكره أنني كنت جالسًا على قمة التلة الصخرية .. أطعم أحد إخوتي ذوي الخطم .. وأضرب بقدمي التراب حتى أشاهد تصاعد ذراته أمام عيني.

- كبرت أيها الوليد الملكي.

ركعت على ركبتي في إجلال .. فأشار لي سيدي أن أنهض ..

كان في كامل حلته .. وفي هيئته التي خلقها عليه الرب الخالق .. والشمس تنعكس على كل شيء في ما حولنا .. إلا على وجهه .. وعلى حلته البهية .. وعلى شرائح الذهب التي تزين ..

- انهض يا فتى .. ولا تركع لمخلوق ما حييت .. فلقد عرفت ورأيت ..

ثم أشار بطرف رأسه ناحية القبور القائمة أسفل التل.

- كلنا من التراب والى التراب يا فتى.

لكننا لسنا مثلهم .. لسنا في أعمارهم ولا في هيئاتهم.

لكننا مثلهم .. خلقنا من التراب والى التراب نعود ..

ابتسم سيدي .. وأشار إلى أحد إخوتي ذوي الخطم.

- اعتدت عليهم واعتادوا عليك.

- إنهم إخوتي .. أنت قلت لي أنهم إخوتي .. وهم إخوتي.. ولكن..

صمت .. ونكست رأسي نحو الأرض الترابية لعلها تبتلعني قبل أن أكمل جملتي.

- ولكن ماذا أيها الوليد الملكي؟ تكلم ولا تخفِ الكلام في صدرك كما تخفي اللبؤة أشبالها.

رفعت عينين سوداوين مغرورقتين بالدمع الجاف إلى وجهه المبارك.

- لماذا تناديني دائمًا بالملكي .. فأنا منذ ولادتي لم أعرف الملكية ولا أعرف لي بيتًا سوى كهفي ولا إخوة إلا أخواتي بنات آوى.

- لكنك ملكي من دم ملكي يا فتى .. إلا أن لحظتك لم تحن بعد.

ابتسم في أمل .. ثم أتذكر أنني أسمع كلمات تخرج من فم يجيد الكلمات .. ومن عقل كعقل المبارك المعظم .. الذي خلقه الرب وجعله ملكًا في ملكوته..

- أنا لا أتحدث بالكلمات بلا معنى يا فتى.

غضبته كانت غضبة أب من عقوق ابنه المراهق الذي لا يفهم من الدنيا إلا لمامًا .. لكنها جعلت عينيه الذهبيتين تتوهجان كألف شمس مشرقة.

سيدي يقرأ ما يدور في عقلي.

- كل منا له ملكته اللي خلقها فيه الخالق الواحد ..

- وما ملكتي يا سيدي؟

- ستعرف .. ستعرف عندما يحين الوقت.

ظللت انتظر ذلك الوقت أن يحين .. انتظرت أيامًا .. أو شهوزا .. أو سنين .. لا قيمة للوقت في كهف داخل جبل صخري .. وأنت ملتحف بأكفان الموتى .. تحرسك أخواتك من بنات آوى.

حتى جاء ذلك اليوم .. يوم رأيتها.. كانت قادمة من الشرق .. تمشي في ثبات .. رقبتها عالية ناصعة كأطراف الصخور السوداء .. وعيناها سوداوان عميقتان واسعتان .. وشعرها الطويل يلتف في ضفائر تتفرع كأشعة الشمس. لو كانت الشمس سوداء!

يومها .. اقتربت مني وربتت على رأسي في حنان .. ثم مسحت بيدها الطاهرة فوق بشرتي السوداء كليل الجبل المظلم.

- يا صغيري المسكين .. كيف تركوك هنا كل هذا الوقت .. كيف!

ثم نطقت اسمي بحروف رنانة جميلة .. حروف لا تقل جمالًا عن صوتها الأخاذ. اسمي.. أنبو .. الوليد الملكي ..

يتبع ..